مجلة تمثلات/ جامعة مولود معمري تيزي وزو المجلد 08 العدد02 السنة 2024
ص107. – ص 122. ISSN:2437-0622 EISSN 2710-8678

تمظهرات الخصوصية الثقافية في روايات مولود فرعون

The manifestations of cultural privacy in the novels of Mouloud Feraoun

فضية بوديوجة* Fadia.boudioudja

طالبة دكتواة، جامعة عبد الرحمان ميرة، بجاية/ الجزائر.

عضو مخبر التأويل وتحليل الخطاب.

Fadia.boudioudja@univ-bejaia.dz

تاريخ الإرسال:2022/03/23 تاريخ القبول: 2023/05/12. تاريخ النشر: 2024/07/01

ملخص: ارتبط الأدب الجزائري وخاصة المكتوب باللغة الفرنسية بالواقع الذي عاشته الجزائر في ظل التواجد الاستعماري، فكان الروائي شاهد عيان على أوضاع مجتمعه متفاعلا مع ما يدور حوله، راصدا التحولات الحاصلة على جميع الأصعدة السياسية والاجتماعية والثقافية.

لذلك تهدف هذه الدراسة إلى رصد الخصوصية الثقافية في الرواية الجزائرية، وجعلت نصوص مولود فرعون مناط التحليل والدرس، خاصة أن هذا الأديب الفذ ارتبط بالأرض والمجتمع، وسلط الضوء على هاتين التيمتين في رواياته، وصور يوميات المجتمع القبائلي بكل خصوصياته، ونقله بعين الفنان لا بعين المصور الفوتوغرافي، وقد رصد مولود فرعون الخصوصية الثقافية للمجتمع الجزائري الأمازيغي عن وعي نابع من رؤية المبدع الذي تخامره هواجس حول الإنسان والأرض والحرية والهوية والكرامة.

الكلمات المفتاحية: الخصوصية الثقافية؛ الأدب الجزائري؛ الرواية؛ الاثنوغرافيا؛ مولود فرعون.

Abstract : *It is agreed upon that Algerian literature, especially written in the French language, was linked to the reality that Algeria experienced under the colonial presence. Therefore, the present study aims to explore the cultural specificity in the Algerian novel, and chose the literary texts of Mouloud Feraoun as the focus of the analysis, especially since he was associated with the land and society. On the same line of thought, he shed light on these two themes in his novels, in which he depicted the diaries of the tribal society with all its peculiarities, and transmitted it in the eyes of the artist, not in the eyes of the photographer. Mouloud Feraoun monitored the cultural specificity of the Algerian Amazigh community with awareness stemming from the vision of the creator who harbored concerns about man, land, freedom, identity and dignity.*

*المؤلف المرسل

Key- words : *cultural specificity; Algerian literature ; novel ; ethnography ; Mouloud Feraoun.*

1.مقدمة:

يمتاز الأدب بشكل عام بالمرونة والانفتاح لقدرته على احتواء الإرث الإنساني المتنوع فلا تضيق قوالبه ولا ينضب معينه، والأدب الجزائري يتسم بدوره بهذه الخاصية، إذ نجده رحب الفضاء يحتوي كل أشكال التنوع الثقافي والزخم الإنساني والتلون الإبداعي، وهو ما يميز الهوية الجزائرية التي هي مزيج جميل ومدهش بين الأمازيغي والعربي وحتى الفرانكفوني، في تداخل يكشف عن غنى وثراء متفرد لهذه الهوية الأصيلة الضاربة بجذورها في العمق، وقد حرص كثير من الأدباء الجزائريين الأمازيغ على استحضار الخصوصية الثقافية الأمازيغية في إبداعاتهم، ليس مجرد تصوير فوتوغرافي مادي، بل تعدى ذلك إلى نقل نبض المجتمع الأمازيغي بالكلمة الحية النابضة بالأصالة والصدق والعمق الإنساني، ومن أبرز الأدباء الجزائريين الذين أولوا عناية فائقة لتقديم المجتمع الجزائري الأمازيغي إلى القارئ نذكر الأديب الفذ مولود فرعون في جل أعماله.

لذلك تتمحور فكرة الدراسة حول الخصوصية الثقافية في الرواية الجزائرية، وتسعى إلى طرح الإشكالية التالية: ـ ما مفهوم الخصوصية الثقافية؟، وهل وقفت اللغة عائقا أمام تمظهر خصوصية الثقافة الجزائرية الأمازيغية في الأدب المكتوب باللغة الفرنسية؟، وما هي تجليات الخصوصية الثقافية في الرواية الجزائرية للأدباء الأمازيغ؟. وللإجابة على هذه التساؤلات تم اعتماد آليات المنهج الموضوعاتي.

2. مفهوم الثقافة:

يعد مصطلح الثقافة من أكثر المصطلحات تعقيدا، كونه مصطلحا فضفاضا، إذ نجد تخصصات شتى تناولته بالبحث والدراسة، وناقشته عدة مدارس منها النفسية والبنيوية، كما اهتم الأنثروبولوجيون بموضوع الثقافة واتخذوه محور دراساتهم الأثنوغرافية والاثنولوجية، ويجد الباحث نفسه أمام جملة من التعريفات التي سعت إلى تحديد المصطلح وضبطه، ورغم ذلك نجد اختلافا كبيرا بين هذه التعريفات لمختلف وجهات نظر أصحابها.

أ) لغة:

يعود أصل "الثقافة" في معاجم اللغة العربية إلى الفعل الثلاثي (ثقف) وتعني إقامة درء الشيء، وقد حملت كلمة الثقافة عدة معان؛ يقال: "ثقفت القناة إذا أقمت عوجها، وثقفته بالتثقيل أقمت المعوج منه"، "والثقاف هي حديدة تسوى بها الرماح."[1]، "وثاقف فلانا: لاعبه بالسلاح وهي محاولة إصابة الغرة في المسايفة ونحوها، وثقاف ككتاب: الخصام والجلاد، وثقفت الرجل في الحرب أدركته وثقفته ظفرت به."[2]، ومما ورد على لسان أعرابي: "إني لثقف راوٍ رامٍ شاعر."، "وقلب ثقف سريع التعلم والتفهم، والثقف مصدر الثقافة، وفعله ثقف إذا لزم."[3]، "ثقف الشيء ثقفا وثقافا وثقوفة: حذقه، ورجل ثقف وثقف وثقف: حاذق فهم"[4]، ومما سبق يمكن القول أن كلمة "ثقف" تحمل دلالة تقويم الاعوجاج، خاصة أن من معاني الثقاف، الآلة التي تسوى بها الرماح، والتأديب والتهذيب والحذق والفهم، وبالتالي شمل المدلول اللغوي العربي للفظة "ثقافة" معان حسية حقيقية مثل تقويم المعوج من الرماح ولها معان معنوية كالتعلم والفطنة واستقامة في التفكير والسلوك.

ب) الثقافة اصطلاحا:

لم يبتعد الاستخدام الاصطلاحي للفظة "ثقافة" عن الدلالة اللغوية لدى علماء العربية، وهذا ما نجده في مقدمة طبقات فحول الشعراء، "وللشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم كسائر أصناف العلم والصناعات، منها ما تثقفه العين، ومنها ما تثقفه الأذن، ومنها ما تثقفه اليد، ومنها ما يثقفه اللسان."[5] فالثقافة لا تبتعد عن معنى الفهم والحذق. وقد ذكر ابن خلون "الثقافة" في مقدمته فقال: "وأما الجيل الثالث فينسون عهد البداوة والخشونة...ويلبسون على الناس في الشارة والزي وركوب الخيل وحسن الثقافة يموهون بها، وهو في الأكثر أجبن من النسوان على ظهورها..."[6]، وقال أيضا: "فلا تفرق بينهم وبين السوقة من الحضر إلا في الثقافة والشارة."[7]، وهو بذلك قد استخدم لفظ الثقافة بمعناها اللغوي وهو "الجلاد".إذاً من خلا ل ما سبق نرى أن لفظة الثقافة في تراثنا لم تستخدم خارج مدلولها اللغوي ولعل ذلك راجع إلى قلة استعمالها فلم يعن علماء العربية بها في مؤلفاتهم.

أما في العصر الحديث فقد تعددت تعريفات الثقافة، تباينت أحيانا واتفقت في الغالب:

عرف مالك بن نبي الثقافة على أنها: "مجموعة من الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية، التي تؤثر في الفرد منذ ولادته، وتصبح لا شعوريا العلاقة التي تربط سلوكه بأسلوب الحياة في الوسط الذي ولد فيه."[8]، فالفرد يكتسب خصوصيات ثقافته من الوسط الاجتماعي الذي ولد ونشأ فيه. وقد ورد في قاموس علم الاجتماع أن الثقافة "نسق تاريخي مستمد من الأساليب الظاهرة والكامنة للحياة التي يشارك فيها كل أعضاء الجماعة أو بعضهم."[9] فالثقافة هي نتيجة تراكمات لممارسات تشاركها الأفراد وتناقلوها فيما بينهم.

3.مفهوم الثقافة لدى الغرب:

ارتبط المدلول اللغوي للفظة "ثقافة" بالطبيعة خاصة الزراعة وفلاحة الأرض، واستمر هذا المعنى إلى غاية القرن الثامن عشر إذ أصبحت تحمل "تكوين الفكر وتربيته"[10] والثقافة أيضا هي "جملة المعارف التي راكمتها الإنسانية خلال تاريخها ونقلتها منظورا إليها على أنها كلية"[11] وبالتالي ف"الثقافة هي أخص ما يختص به الإنسان(نوعا) تجاوزا لكل التمايزات شعوبا وطبقات."[12] إذاً ارتبطت لفظة "ثقافة" بالأرض وبالمعنى المعنوي أي تنمية العقل والذوق والأدب، واستمر تطورها إلى أن أصبحت مصطلحا علميا مهما في الدراسات الأنثروبولوجية.

أما في الاصطلاح الغربي فقد ازدهرت كلمة الثقافة وعرفت انتشارا واسعا وتعددت تعريفاتها، إذ عرفها علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا وعلماء النفس وكذا البنيويون، وأكثر تعريف متداول هو القائل بأن "الثقافة هي ذلك الكل المركب المشتمل على المعارف والمعتقدات والفن والقانون، والأخلاق والتقاليد، وكل القابليات والعادات الأخرى التي يكتسبها الإنسان كعضو في مجتمع."[13] فالثقافة مكتسبة خاصة وأن الإنسان لديه قدرات ومهارات تمكنه من التعلم والاكتساب والإضافة والإبداع أيضا، وهي صفة اختص بها عن جميع المخلوقات، فهو صانع الثقافة ومبدعها.

نستشف من خلال ما سبق أن الثقافة تتسم بالعمومية في تجربة الإنسان، وهي مفهوم قابل للتغير الدائم والتبلور، رغم ما يبدو عليه من ثبات، كما يتم تناقل الثقافة من جيل إلى جيل في إطار المجتمع الذي يفرض عادات وطقوس وأنماط السلوك، وهي تضم في طياتها ما يحافظ على الهوية المميزة للشعوب والمجتمعات.

4. الخصوصية الاثنوغرافية:

يتكون مصطلح الاثنوغرافيا من كلمة "إثنو" بمعنى جنس أو شعب باللغة اللاتينية، و"غرافي" وتعني وصف، وبالتالي تعرف الاثنوغرافيا بأنها "وصف لثقافات وحياة الشعوب"[14]، فهي تهتم برصد حياة الشعوب وتسجيل المعلومات والملاحظات حول أنماط الحياة والعيش والعادات والتقاليد المتوارثة واللغات واللهجات، كما تهتم بدراسة وتحليل المجموعات الاثنية "العرقية"، وأساسها في ذلك المعاينة والمشاهدة على أرض الواقع، وبالتالي فهي دراسات تطبيقية، تقترب أكثر من الموضوع قيد الدراسة والبحث.

يعتبر الأدب الجزائري الأمازيغي المكتوب باللغة الفرنسية أدبا لصيقا بالواقع والمجتمع، يجس نبضه ويرصد تفاصيله اليومية برتابتها وعمقها الإنساني، يرسمها بألوان الحياة الدافئة، دفء مشاعر هذا الشعب النبيل، فمعظم الروايات التي أُلفت فترة الاحتلال الفرنسي صورت الحياة اليومية للمجتمع الجزائري في المدينة والريف، أوقات السلم والحرب والرخاء والشدة، واحتوت مختلف أطيافه وفئاته، وأسمعت أصواتهم وأفصحت عن أفكارهم ومشاعرهم، وتتبعت تقلبات الأيام معهم وردود أفعالهم، بل إنها نقلت بأمانة بالغة أدق التفاصيل كالأزياء، ونمط العيش والأفكار السائدة والعادات والأعراف. وتعد روايات "مولود فرعون" روايات إثنوغرافية في تقدير النقاد والدارسين.

5. الخصوصية الثقافية في روايات مولود فرعون:

واجه المجتمع الجزائري فترة الاحتلال الفرنسي تحديات كبيرة، أهمها المحافظة على الخصوصية الثقافية الأمازيغية العربية الإسلامية، خاصة مع المساعي الحثيثة للاحتلال في طمس المقومات الأساسية لهذا الشعب، فلا غرو أن نجد الكتاب الجزائريين يدافعون عن معالم هذه الهوية بأقلامهم وإبداعهم، وقد أدرك الكاتب مولود فرعون خطورة الأمر وحساسيته، فسكب مداده لإبراز تلك الخصوصية المميزة للمجتمع الأمازيغي (القبائلي)، تحذوه الرغبة في إعطاء صورة صادقة ومعبرة عنه، ولعل ذلك راجع إلى ارتباطه بالأصالة والموروث، ورَدَّ على سياسة الاستعمار الرامية إلى الإدماج والتهجين والطمس وحتى الإقصاء.إذاً كان الرد على السياسة الاستعمارية بلغة المستعمِر ذاتها، للتعبير عن الرفض القاطع لأشكال الظلم والاستعباد والتهجين ب"استعادة الماضي الذي يعود إلى مرحلة ما

قبل الاستعمار القديمة أو المتأخرة على السواء، وإحياء الجماليات التقليدية، والتمسك بمعايير علم الجمال الوطني أو الطائفي أو الديني أو القومي أو العرقي في نسختيه العالمة وغير العالمة."[15] لقد ارتبطت ممارسة الخصوصية الثقافية بفكرة تفكيك الاستعمار ومواجهة مخططاته، وفعل الكتابة من أقوى الأسلحة التي تم إشهارها في حرب الأنا والآخر/الهامش والمركز،/المستعمِر والمستعمَر، " وممارسة الخصوصية الثقافية في الأدب إحدى أدوات المقاومة، مثلها مثل التثوير، أو فضح الممارسات الاستعمارية، إلا أنها الأداة الأكثر التصاقا بالثقافة، بمعناها الجمالي محتضنا معناها الأنثروبولوجي."[16]

إن أكثر ما ميز المجتمع الجزائري منذ عهود قديمة، التنوع الثقافي والثراء الفكري والحضاري الضارب في عمق التاريخ، إذ تعاقبت على أرضه الأمازيغية ثقافات وحضارات شتى، تركت بصماتها في اللغة والعادات والعمران، ورغم ذلك حافظ المجتمع الأمازيغي على عراقته وأصالته وموروثه، ورفض كل أشكال الذوبان أو الانسلاخ عن الهوية، لذلك نجد أنماط العيش واللغة والطقوس والعادات هي ذاتها منذ عهود ما قبل التاريخ، خاصة إذا عرفنا أن معالم الخصوصية الثقافية الأمازيغية تتمثل في اللغة الأمازيغية التي حافظ عليها أبناؤها على الرغم من التعاقب الحضاري باختلاف وتنوع الهويات، وكذا الموروث الشعبي والمتمثل في العادات والتقاليد والطقوس، وتفاصيل الحياة اليومية وأشكال الفنون كالأغاني والرقص والأحاجي والأساطير والألغاز والخرافات والمعتقدات والأفكار والألوان والحرف والاحتفالات والتجمعات، بالإضافة إلى الدين الإسلامي بوصفه المرجعية التي تستند إليها التشريعات المنظمة للحياة بمختلف نواحيها، فهو الأساس في منظومته القيمية وسلمه المعياري، وعلى الرغم من قولنا أن المجتمع الجزائري الأمازيغي ظل محافظا على خصوصيته الثقافية إلا أنه لا يعني انتفاء تأثره بالعوامل المحيطة وأهمها الوجود الاستعماري، الذي أثر على كثير من المرجعيات المؤطرة لهذه الخصوصية، وبالتالي أضحت ذات جانبين؛ الأول إيجابي والثاني سلبي، ويتجلى الجانب الإيجابي للخصوصية الثقافية الأمازيغية في القيم السامية المستمدة من أصالة هذا الشعب أولا، وثانيا من القيم الدينية التي تشبع بها كالصدق والأمانة والرحمة والتعاطف والتعاون والإخاء والعدالة وصلة الرحم وبر الوالدين ، كما نلمسها في التعاملات اليومية إذ أولى مجتمع القبائل أهمية بالغة لتماسك نسيجه والحفاظ على الصلات والروابط، كما نجدها أيضا في أنماط العيش وطريقة الملبس والمأكل، وهي كلها

نابعة من تاريخه العريق المتوارث عن الأجداد، وهي سمة جمالية أكسبته تميزا وتفردا. أما الجانب السلبي فنجده في هيمنة الذكورة على الأنوثة وانفراد الرجل بالسلطة التي منحها إياه المجتمع، وبالتالي استأثر بالكثير من الحقوق على حساب شريكه الآخر/المرأة، هذه الأخيرة التي انحصرت وظيفتها في منح الرجل حقوقه والإنجاب والتربية والرعاية والاهتمام بشؤون البيت، لكن لا حقوق لها في إبداء رأيها أو التعبير عن مواقفها وأفكارها أو التوجه إلى طلب العلم أو القيام بأنشطة تؤدي فيها أدوارا فاعلة تحسن من مستواها المادي والاجتماعي وحتى الفكري وتشعرها بكيانها الإنساني. كما قد تحرم المرأة من الميراث في أغلب الأحيان، كما نجد ظاهرة سيطرة الخرافات على عقول عامة الناس وتصديقها والعمل بها خاصة في حالات اليأس والعجز.

6. تجليات الثقافة الاثنوغرافية:

1) الحياة الاجتماعية:

يتضح من خلال روايات مولود فرعون أن الكاتب خبير بمنطقة القبائل، يذكر أدق التفاصيل والجزئيات الصغيرة، يأخذ بيد القارئ ويعرفه على هذا العالم الذي لا يشبه إلا ذاته، بخصوصياته التي تميزه عن بقية المجتمعات. "إن السائح الذي يجرؤ على التوغل في عمق بلاد القبائل سوف تخلب فؤاده مناظرها يقينا أو مجاملة، سيجد أحياءها سحرية وتبدو له مشاهدها شاعرية، فلا يسعه إلا أن يشارك الأهالي مشاركة وجدانية في عاداتهم المتسامحة."[17]، يربط الإنسان القبائلي شعورا قويا بالانتماء، واعتزازا ينم عن شموخ ووفاء للأرض التي تنسم هواءها وارتوى بمائها وشبع من خيراتها، يقول عن تيزي وزو: "تيزي هي عبارة عن تجمع سكاني من ألفي نسمة، تنتزع دورها انتزاعا الواحدة تلو الأخرى على ربوة ضخمة كأنها فقرات وحش من وحوش ما قبل التاريخ، مئتا مترا طولا، وشارع رئيسي هو عبارة عن مقطع من نهج يربط عددا من القرى."[18]، هي مرتع الأحلام والطفولة واجتماع شمل العائلة في دفء غامر لا تمحوه السنين، لذلك تمكن من تصويرها بسلاسة ومرونة ودفء فياض.

من خصوصيات المجتمع القبائلي احترام "الجماعة" باعتبارها رمزا للمرجعية والانتماء والشورى والتعاون والمشاركة والاتحاد، يقول: "القرية مشكلة من ثلاثة أحياء فإنها تحتوي على ثلاث تاجماعت

أيضا، لكل تاجماعت مقاعدها الحجرية وصفائحها الملمعة."[19] كلمة تاجماعت بالأمازيغة تعني الجماعة، لتبادل الآراء والتشاور حول شؤونهم اليومية.

وأشد ما ميز هذا المجتمع هو تشكله من مجموعة من العائلات المنتسبة إلى أصل واحد، "بحيث أضحى تاريخ القرية كتاريخ شخص واحد، فلا وجود لطائفة متميزة ولا لألقاب خصوصية عائلية."[20]، يجمعهم تاريخ مشترك فيذيب بينهم كل الفوارق، إضافة إلى ذلك فهم يعيشون ظروفا واحدة ومتشابهة. ومن العادات الراسخة احترام كبير العائلة وترك زمام القيادة له، خاصة في تدبير شؤون الاقتصاد من شراء وبيع وادخار، وكان ذلك يعود بالنفع على الأسر بتنظيم أمورها وحسن تسييرها، فتتفادى الوقوع في التبذير أو الفوضى، "وفي عائلة منراد كانت جدتي هي المكلفة بالذخيرة، فهي الوحيدة التي تفتح إيكوفي وتغلقه، وكانت لها طرق خاصة لمعالجته..."[21]. فكانت الجدة مثل صمام الأمان لهذه العائلة.

2) الأمثال الشعبية:

تعد الأمثال الشعبية والأقوال المأثورة من أكثر فنون التعبير تداولا لأنها الأقرب إلى سليقة الناس والأحب إلى نفوسهم، يعبرون بها عن أفكارهم في مواقف معينة، ترِد في جمل قصيرة فصيحة ذات تركيب جميل وجرس موسيقي جذاب، أورد مولود فرعون جملة من الأمثال السائرة التي تعكس الطابع الثقافي والاجتماعي من مثل: "يامزوق من برا وشحالك من الداخل"[22]، في إشارته إلى اهتمام بعض السكان بالواجهة الخارجية لبيوتهم والمبالغة في تنميقها وتزيينها في حين أنها تشبه بقية البيوت من الداخل.ومن الأمثال التي تشير إلى روح التعاون والتماسك والأخوة السائدة بينهم قوله: "نحن جيران للنعيم وليس للجحيم"[23].

3) الطعام:

غالبا ما تكون الطبيعة هي المصدر الأساس لأكل سكان الأرياف والقرى، فلهم في كل فصل محصول مما تزرع أيديهم في الحقول، فيدخرون منه ويقتصدون فيه تحسبا لأيام الشدة، يقول السارد عن جدته: "...تأتي بنصيب من التين المجفف أو غربال من القمح، أو إناء من الزيت أو قطعة من الشحم، كانت لها معاييرها الخاصة بها،...كانت النسوة هن اللواتي يعددن الكسكسي ولكن ما

إن يوجد حتى تتولى هي توزيعه على الطباق، واللحم هو الوحيد الذي يقسمه بكرها، إنه من اختصاص الرجال."[24]، إن للخزين أهمية كبيرة في تجنب الجوع والحاجة طوال العام، لذلك لا بد من سياسة رشيدة تديره، ويد أمينة تشرف عليه، ويكشف هذا القول أن الكسكسي طبق رئيسي على المائدة، وهناك ما يعززه من أغذية أخرى كالزيت والشحم والتين، أما اللحم فهو الطعام الذي لا يراه الناس على موائدهم إلا في الأعياد والمناسبات، لذلك يكرم كبير العائلة من الرجال بمهمة توزيعه.

4) المسكن:

يعيش معظم سكان القبائل في بيوت بسيطة ومتواضعة "مشيدة بقوالب الصخر المتبلور والصلصال المخلوط بالتبن، أما السقوف فهي من الآجر المجوف الموضوع على أسرة من القصب وتكون الأرضية مدكوكة دكا غزيرا ومغطاة بطبقة من الكلس المملس الأصفر الذي يوحي بانطباع النظافة والرشاقة الريفية...إن تهيئة البيوت من الداخل تعود لربات البيوت، فيه شقاؤهن وكبرياؤهن، وبحسب بحبوحة العائلة فإن الطلاء يجدد دوريا..."[25]، ويتم تقسيم أجزاء هذه البيوت حسب حاجات سكان الأرياف، ففيها مكان يستخدم كإسطبل ومربط للحيوانات ومكان لتخزين الحطب، وفي الطرف العلوي يخصص مكان لتخزين المؤونة، لكن قد تشذ بعض البيوت عن المنظر المعتاد، فيظهر عليها البذخ والمبالغة في تزيين واجهاتها، لكنها تشبه بقية المنازل من الداخل.

5) الملبس:

الفوطة لباس خاص بنساء المنطقة القبائلية، وهي عبارة عن قطعة قماش مخطط بألوان زاهية تشده المرأة على خصرها يزيد من جمال ثوبها، ونعثر على هذه التسمية في الرواية مثل: " وباية تحمل كغنيمة فوطة عيني زوجة بوسعد"[26]، أما المنديل فهو قطعة تغطي به المرأة شعر رأسها، جاء في الرواية: "لمحت أمي يتطاير شعرها إلى الأعلى وهي تبحث عن منديلها"[27]، أما زي الرجال والأطفال يتمثل في القندورة والبرنوس والقلنسوة، "قالت والدتي إن قندورته متسخة أيضا، لعله من الأحسن أن ننتظر ليوم الغد كي أغسلها له مع برنوسه"[28]، وتطلق القندورة أيضا على فستان المرأة " كانت ترتدي "قندورة" بيضاء ذات ورود صغيرة، وعلى خاصرتها فوطة من القطن يمسكها خيط أحمر بدلا من الحزام

فلم تكن تطيق الفانيلا المعهود لدينا."[29] يعرف سكان منطقة القبائل بأزيائهم التقليدية المميزة بألوانها وتفصيلها، وبساطة لا تخلو من جمال وذوق مستملح.

6) المعتقدات والأفكار:

تختمر عقول الناس معتقدات كثيرة، يفسرون بها المواقف التي تطرأ معهم، وهي إما لها صلة بالأساطير أو الخرافات، خاصة اتجاه أمور تعجزهم لا يجدون لها تفسيرا منطقيا أو حلولا ناجعة، وكثيرا ما يغلب عليها الجهل وبساطة التفكير، والاستسلام السلبي للأقدار، ففي حالة المرض يلجأ أغلبهم إلى الشيخ الذي يكتب التمائم ويشعل البخور، ويكلف أهل المريض بذبح ديك أو جدي حتى ينصرف عن جسده الجني الذي تسلط عليه، "قالت الأم: إنهم الجنون، إن والدكم يصارعهم منذ ساعة"[30]، فطلب الشيخ لعلاجه التضحية بتيس والتبخير بورق الغار لإخراج الجنون، وهو نفس ما حدث مع والدة فورولو، إذ قرر الشيخ أن شفاءها يكون بذبح جدي بمواصفات محددة.يعتقد أهل القرية أن الجن تنزعج من الإنس خاصة ليلا وبالقرب من منابع الماء والسواقي وبالأخص في حالة نسيان التعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

ومما يؤسف له في المجتمعات الشرقية بصورة عامة تفضيل الذكر على الأنثى، وتكريس ذلك في أدق تفاصيل الحياة، حتى صارت المرأة/الأنثى نفسها تحرص على هذا التكريس، عن وعي وعن غير وعي، لأن المجتمع فرض ذلك وجعله من المقدسات.يقول فورولو عن أخته: "...سريرتها طيبة كانت تساعدها على تجاوز ضرباتي وتقبل سخرياتي بتساهل يندر تخيله في طفلة من سنها، بيد أنه لم يكن يُتوانى في ترسيخ الاعتقاد أن انقيادها لي واجبا، وأن سلوكي ذاك حقا عليها، وكلما عنت الشكوى كانت تتلقى جوابا مختلفا: "أليس أخوك؟ ما أسعدك لوجود أخ لك كفي عن البكاء واذهبي لتقبيله"[31]. لقد تفطن الولد للامتياز الذي حظي به ومنحه إياه العرف، فاستغله أسوأ استغلال، يقول: "أدركت أهميتي بداية من سن الخامسة، فأسرفت في حقوقي وتحولت بسرعة إلى طاغية على الصغرى من أخواتي."[32]،

ومن أشد مظاهر ظلم المجتمع الذكوري للمرأة هو حرمانها من حقها في الميراث، بذريعة رفض انتقال أملاك العائلة إلى الغريب، فجدُّ فورولو – لوالدته- " كان يخشى على ثروته أن تكون صيدا

سهلا بين أيدي النساء، كما كان يرفض أن يدنس عرض آل آيت موسى الحاضرين منهم والقادمين، لم يكن يرغب في إقامة الآخرين على أراضيه..."[33]، مما جعل المرأة عرضة للفقر والحاجة وعدم الأمان من تقلبات الأيام.

أشار مولود فرعون إلى اهتمام الناس بالسمعة حتى وإن كان من باب النفاق، وعلى حساب الأخلاق والقيم، وهو ما يوقعهم في تناقض الظاهر مع الباطن، إذ يبدون ما لا يبطنون، خوفا من ألسنة الناس التي لا ترحم، أما عن الشرف فهم لم يفكروا بتاتا فيه، إلا أن نفاقهم أقوى من شهواتهم، إذ يخشون الفضيحة أكثر مما يخشون الموت."[34] هذا ما قالته أم ذهبية في سخرية لاذعة تنتقد فيها أهل القرية الذين عرفت حقيقتهم منذ كانت شابة يافعة.

وعلى لسانها أيضا أبرز الكاتب إيمان الناس العميق بالمكتوب، واستسلامهم للقضاء والقدر في خدر عجيب، يهون عليهم مصائبهم وخيباتهم، تقول: "إن السعادة أو الشقاء تكتب لنا على الجبين نحن النساء منذ الولادة، لا قدرة لنا أمام القدر."[35]، الرضا بالقدر خيره وشره منحهم القدرة على تجاوز الصعاب وعدم الاعتراض على مقادير لا يمكن تغيير مسارها.

7) العادات والتقاليد:

أكثر ما يمنح أي مجتمع خصوصيته الثقافية العادات والتقاليد، إضافة إلى كونها تنظم حياة الناس وتجعلها ذات عمق، وهذه العادات هي نتيجة لسلوكات قام بها أفراد ثم تناقلوها فيما بينهم وورثوها الأبناء والأحفاد.فمن العادات المعروفة عند القبائل أنه حين يتم إخراج الميت من منزله للقيام بعملية الدفن "أن يرافقوا الفقيد إلى غاية أطراف المقبرة"[36]، من باب التعبير عن صعوبة الفراق، وشدة الفاجعة التي رُزِء بها أحبته.

تتقن المرأة القبائلية العديد من الحرف اليدوية، مما يدر عليها وعلى أسرتها دخلا إضافيا، كالنسيج وصناعة الفخار، تترك فيها لمسة الأنوثة، وثقافة المنطقة وتاريخها العريق، من خلال الألوان والرسوم والخطوط والأشكال، "إن حياكة الصوف حقيقة حرفة كحرفة النمل...ينصب المنسج عموديا على بعد مسافة قصيرة من الحائط...قبل نصب المنسج فإن خالتي تنهمكان إما في تمشيط الصوف المغسول أو في غزله...إن نانة لملهمة جدا، خيوطها شديدة التماسك ورقيقة كالشعيرات الدقيقة فهي

تحسن نقل الخطوط التي ترسمها على الجرار إلى القماش الذي تنسجه."[37]، تفيض على أشغالها اليدوية من جمال روحها ورقة قلبها وعذوبة أحلامها، إنها الأنثى في كامل تجلياتها.

8) الدين:

عانت منطقة القبائل من الحملات التبشيرية للكنيسة، وجعلت أطفال الفقراء الهدف الأساس لها تستميلهم بالعطف وتستغل حاجتهم إلى المأكل والمأوى، خاصة المتمدرسين منهم، لذلك دخل فورولو رفقة صديقه الكنيسة وحضرا طقوس العبادة والدروس الدينية، " كانا يذهبان هناك بانتظام يقرآن مقاطع من الإنجيل مثل جميع التلاميذ، وينشدان التراتيل بطريقة جيدة، ويسمعان باحترام تعليق القائد، ثم يعودان إلى غرفتيهما ليستأنفا بدون تردد عملهما المنقطع، لم يرهما أحد يطلبان توضيحا حول أي مقطع كان من الإنجيل أو يذهبان إلى القاعة للبحث عن شرح هذه النقطة أو تلك من الدين، أو يطلبان من الراهب أن يصلي لهما."[38]، على الرغم من مداومة الصبيين حضور الصلوات والدروس الدينية، إلا أن ذلك لم يجعل منهما مسيحيين، ولم يرغبا في اعتناق المسيحية، على الرغم من استحسانهما للتراتيل، والأناشيد الدينية وما تبعثه في نفسيهما من شعور بالسلام والسكينة، إلا أنه لم يراودهما الفضول للتساؤل حول هذا الدين، أو محاولة التعمق في آيات الإنجيل، الأمر الذي لم يخف على القس.

رواية الدروب الشاقة هي إحدى الروايات الاثنية، فمجتمع هذه الرواية يتكون من طائفة مسلمة وهي الأغلبية وطائفة المسيحية، وقد كان بين المسلمين والمسيحيين بعض السجالات والتهم المتبادلة، بطلة الرواية ذهبية مسيحية، كانت" تعرف حق المعرفة أتباع المسيحية من أهل القرية فهم لا ينتمون إلى هذه الديانة سوى بالاسم،...إن المسيحيين من أهل القرية يقسمون بالأولياء الصالحين ويختنون لأولادهم كما يفعل المسلمون ويحتفلون بعيدي الأضحى والفطر كما يحتفلون بعيد المسيح."[39]، ويتضح جليا أن الكنيسة لا تدخر جهدا في طمس الهوية الجزائرية، فبعد طقوس التعميد تطلق على المعمدين أسماء غربية غريبة عنهم وعن البيئة الأصلية، لكنهم يحتفظون بأسمائهم العربية الأمازيغية بكل فخر.

أما "اعمر" فقد أفصح عن تمرده على الدين والقيم الأخلاق، حاله مثل حال كثير من الشباب الجزائري الذي اغترب وتعرف على أوروبا ومدنيتها، فوجد نفسه ممزقا بين هويته الأصلية وبين إعجابه ببريق الغرب الخادع، فظل غريق أفكاره المشوهة يكفر بكل شيء، نتيجة للصدام العنيف بين الأنا والآخر.يقول عن نفسه: " أنا رجل لا يكترث بتاتا بالقيم والمبادئ."[40]، وهذا ما يفسر تصرفاته الجريئة، وقد يرجع السبب أيضا إلى نشأته مع أمه ذات الأصول الفرنسية، ف " اعمر" هو نتيجة لزواج مختلط، تم فيه التقاء الشرق بالغرب/ الأنا بالآخر، في معادلة غير متكافئة.

7. خاتمة:

نصل في الأخير إلى الجزم بأن الكاتب مولود فرعون صور بلاد القبائل بعيون قلبه، تصويرا نابضا بالحياة والصدق والألق، وبذلك ابتعد كل البعد عن التصوير الفوتوغرافي، ونقل القبائل إلى الورق بكل سحره وجماله وبساطته وحيويته وتميز خصوصياته، وكأنه أضحى ناقلا لموروث المنطقة لكن بلسان وعين وسمع وإحساس الأديب المبدع.

لم تقف اللغة الفرنسية عائقا أمام الكاتب مولود فرعون في أفكاره ومشاعره من الأمازيغية والعربية إلى لغة المستعمر ومن ثم إلى القارئ، بل نجح في جعلها مطية ووسيلة تعبير أسمع بها صوته لأبناء وطنه وللمستعمِر ولكل قارئ اطلع على إبداعه.

بذل المجتمع الجزائري الأمازيغي مجهودا معتبرا للتصدي لكل أشكال التهجين والمسخ، محافظا على المقومات الأساسية للخصوصية الثقافية.

تتسم الخصوصية الثقافية بكونها نسقا قيميا ومعرفيا حيويا بعيدا عن الجمود والتحجر، مما يؤهله أن يحقق الرقي والازدهار.

الهوامش:

---

[1] – ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، تح: عبد السلام هارون، مادة (ثقف).

[2] – الفيروز أبادي، القاموس المحيط، تح: خليل مأمون شيحا، مادة (ثقف).

[3] – الفراهيدي، كتاب العين، تح: عبد الحميد هنداوي، مادة (ثقف).

[4] – ابن منظور، لسان العرب، مادة (ثقف).

[5] – ابن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت، 2001

[6] – ابن خلدون، كتاب العبروديوان المبتدأ والخبر، مكتبة لبنان، بيروت، 1992

[7] – المرجع نفسه، الفيروز أبادي، القاموس المحيط، تح: خليل مأمون شيحا، مادة (ثقف).

[8] – مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط4، 1984، ص74

[9] – مُحَّد عاطف غيث، قاموس علم الإجتماع، الهيئة المصرية للكتاب، مصر، 1979، صص97 –98

[10] – دينيس كوش، مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية، تر: منير السعيداني، ص 18.

[11] – المرجع نفسه، ص 18

[12] – المرجع نفسه، ص 17

[13] – المرجع نفسه، ص 31

[14] – فهد بن سلطان السلطان، المنهج الاثنوغرافي، رؤية بحثية تجديدية لتطوير واقع العمل التربوي، دن، دت، ص10.

[15] – شهلا العجيلي، الخصوصية الثقافية في الرواية العربية، الدار المصرية اللبنانية،ط1، 2011، القاهرة، 79.

[16] – المرجع نفسه، ص55.

[17] – مولود فرعون، ابن الفقير، دار تلانتيقيت، 2016، دط، ص13.

[18] – المرجع نفسه، ص13.

[19] – المرجع نفسه، ص15.

[20] – المرجع نفسه، ص 16

[21] – المرجع نفسه، ص26

[22] – المرجع نفسه، ص15.

[23] – المرجع نفسه، ص16

[24] – المرجع نفسه، ص 26

[25] – المرجع نفسه، ص18

[26] – المرجع نفسه، ص38

[27] – المرجع نفسه، ص38

[28] – المرجع نفسه، ص56

[29] – المرجع نفسه، ص82

[30] – المرجع نفسه، ص104

[31] – المرجع نفسه، ص29

[32] – المرجع نفسه، ص28

[33] – المرجع نفسه، ص23

[34] – مولود فرعون، الدروب الشاقة، دار تلانتيقيت، بجاية، 2016، ص43

[35] – المرجع نفسه، ص43

[36] – مولود فرعون، ابن الفقير، ص87

[37] – المرجع نفسه، ص53

[38] – المرجع نفسه، ص131

[39] – مولود فرعون، الدروب الشاقة، ص19

[40] – المرجع نفسه، ص172

قائمة المصادر والمراجع:

– ابن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت، 2001.

– ابن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، مكتبة لبنان، بيروت، 1992.

– ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، تح: عبد السلام هارون، مادة (ثقف).

– ابن منظور، لسان العرب، مادة (ثقف).

– شهلا العجيلي، الخصوصية الثقافية في الرواية العربية، الدار المصرية اللبنانية، ط1، 2011، القاهرة

–دينيس كوش، مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية، تر: منير السعيداني

– الفيروز أبادي، القاموس المحيط، تح: خليل مأمون شيحا، مادة (ثقف).

– الفراهيدي، كتاب العين، تح: عبد الحميد هنداوي، مادة (ثقف).

- فهد بن سلطان السلطان، المنهج الاثنوغرافي، رؤية بحثية تجديدية لتطوير واقع العمل التربوي، دن، دت
- مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط4، 1984،
- مُحَمَّد عاطف غيث، قاموس علم الإجتماع، الهيئة المصرية للكتاب، مصر، 1979
- مولود فرعون، ابن الفقير، دار تلانتيقيت، 2016، دط
- مولود فرعون، الدروب الشاقة، دار تلانتيقيت، بجاية، 2016